التقية بين الحراك والجمود

التقية مصطلح راكز في الفكر الشيعي لا يخفى على أي فرد من الشيعة، بالرغم من أنه مصطلح إسلامي قرآني روائي زخرت به آيات القرآن الكريم وروايات المسلمين، إلا أن الشيعة قد عرفت به وعرفته أكثر من غيرها كونها الفرقة التي فهمته حق فهمه من جهة، وكانت الأحوج لتطبيقه من جهت أخرى. نقول الأحوج، لا من باب أن الشيعة الأكثر ملاحقة وتشريداً واضطهاداً فحسب، بل لأنها الأكثر فهماً للتقية وفلسفاتها المتعالية التي خفت على الكثيرين ففاتهم من بركاتها ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

ومع ذلك نقول: مرَّ فهمُ التقية بمراحل طويلة أفضت به للنضج طوراً بعد طور وحيناً بعد حين وعصراً بعد عصر، خصوصاً وأن النصوص الشرعية الخاصة بها كثيرة فوق حد الإحصاء، وليعلم هنا أن النصوص لم تقف عند حد التصريح بل تعدتها للتلميح والرمز في الكثير من الموارد. وعليه فإن الفهم الأنضج والأكمل للتقية وحدودها وفلسفتها خاضع لاعتبارات عدة منها النضج العلمي في المجال العقائدي على وجه التحديد، والأمر غير مقتصر على التقية فحسب بل يشمل الكثير من العقائد الإرتكازية الرئيسية كالرجعة والبداء ...الخ.

المعروف بالبداهة عن التقية أنها حفظ الدين والنفس والمال وكل شيء محترم من الإنتهاك والبطش، وبعبارة أخرى فهي الإحجام عن أي قول أو فعل من شأنه سفك الدماء وقتل النفس

والخسارة، وبالتالي فعلى المؤمن التحفظ عن إظهار الكثير من معتقداته قولاً وفعلاً بل والتظاهر بخلافها خوفاً على كل تلك المذكورات، فقد يصلي على ما لا يصح السجود عليه تقية، كما قد يدّعي إذعانه بعقيدة باطلة عنده محترمة عند غيره تقية، وغير ذلك مما التزم به المعصومون أولاً وبالذات في سيرتهم صلوات الله عليهم أجمعين، لدرجة وجود روايات في التراث الشيعي صحيحة السند إلا أنها غير مقبولة في مضمونها لإدراجها ضمن الروايات التي صدرت في ظروف التقية.

في الحقيقة، إن التقية أعمق وأعمق من ذلك بكثير، إذ قد يفهم مما أسلفنا –وهو ثقافة شائعة بديهية- أنها تفرض الركون للدعة (الجمود) وانتظار الفرج لبدء (الحركة)، وهو مفهوم خطير جداً غير متناغم وروايات ومسلك أهل بيت العصمة عليهم السلام. إن المتبحر في روايات المعصومين بخصوص التقية يجد أنها تفرض (الحركة) على أية حال ومهما كانت الظروف، بل إن سر دوام حركة التشيع طوال الأعصر الماضية بالرغم من حالة البطش والتنكيل إنما هو راجع للتقية التي أبقت هذا المذهب مرناً حياً متحركاً بعيداً عن الجمود والإنكفاء والإنزواء.

ومن هنا جاءت ثقافة (انتظار الفرج) معززة للحركة في أيام الشدة التي حظيت بروايات لا حصر لها، ولو نظرنا للتقية من منظور تلك الثقافة فقط لما كفتنا مؤلفات لبيان فلسفة التقية وأهدافها. لما نمعن النظر في فلسفة (الانتظار) نجدها مرنة في حراك مستمر مهمتها تحريك الجامد كي لا يصاب التشيع بحالة ركود ونسيان أو حتى غفلة، فتجد الأذكار اليومية والموسمية وكذلك الأعمال فضلاً عن النصوص الدافعة للإستعداد للنصرة في أي وقت ومنها ليلة القدر التي في صبيحتها

الصيحة المعلنة للظهور، لدرجة أن الروايات قد أكدت على ضرورة التعلق بنصرة الإمام صاحب الزمان روحي فداه ولو بإخفاء نصل أو حديدة واعتبارها الأداة للنصرة في أي وقت يظهر.

لو دققنا في النصوص المحفوظة والمتداولة التي تقول أن التقية هي الدين أو أنها ترس المؤمن ودرعه، فإنها لا ترجع حفظ الدين والنفس والإيمان إلى التقية التي تعني السكوت والخنوع، وإنما التقية التي تدفع لاستثمار وقت وظرف الهدوء والسكوت وغمد السيف لإعادة ترتيب الأوراق والنظر في الاستراتيجيات لرسم خارطة الطريق لنصرة صاحب الزمان بما يتوافق مع المستجدات ومقاييس القوة والضعف والمعطيات. ولكم هي عظيمة تلك الروايات التي شبهت المنتظِر بمثال حي متحرك منتج كالنحلة التي يستضعفها الطير لأنه لا يعلم ما تخفيه في جوفها، وإليك نص الرواية التي يرويها الأصبغ بن نباتة عن الأمير عليه السلام: (كونوا كالنحل في الطير، ليس شئ من الطير إلا وهو يستضعفها، ولو علمت الطير ما في أجوافها من البركة لم تفعل بها ذلك، خالطوا الناس بألسنتكم وأبدانكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم...)[1].

التقية هي الهدوء الذي يسبق العاصفة، هي التخطيط بعيد المدى، هي التدبير المستمر لنصرة الدين، هي ذخر النفس والمال وكل أداة للنصرة، فإذا حفظت الأدوات وأعددت الخطة بسرية تامة، يكون الإنتصار أكبر والنتائج أوقع، ولو نظرنا للروايات التي تؤكد على التزام البيوت في آخر الزمان وأيام الفتن، خصوصاً تلك المعنونة بعنوان (أحلاس البيوت)، نجدها تدفع بالمؤمنين في تلك الظروف العصيبة المرتقبة للتخطيط السليم والتروي في التمهيد لعصر الظهور وتنفيذ الخطة

[1] الغيبة للنعماني: ج١ ص٢١٥-٢١٦، أنوار الهدى-قم المقدسة، ١٤٢٢هـ.

عند الظهور، فضلاً عن عدم التهور والتسرع والإنجرار لنعق كل ناعق أو صيحة كل صائح أو تقدم كل متقدم، يدلك عليه قول الإمام الصادق (ع): (هلكت المحاضير، قلت: وما المحاضير؟ قال: المستعجلون ونجا المقربون، وثبت الحصن على أوتادها، كونوا أحلاس بيوتكم، فان الفتنة على من أثارها، وإنهم لا يريدونكم بحاجة إلا أتاهم الله بشاغل لأمر يعرض لهم)[٢].

نفهم أن التقية دين الإمام المعصوم وآبائه وأجداده بما هي المخطط والمدبر للتمهيد للحركة المهدوية والظهور المقدس، ونفهم أن من لا تقية له لا دين له في سياق أن الذي لا يخطط ولا يدبر في وقت السكوت والركون لما بعد تلك المرحلة، فإن دينه منتهك ومحكوم عليه بالزوال والإجتثاث، فثبات التشيع وقوته المتنامية عبر العصور ورغم الظروف القاهرة، إنما هو قيد الفهم الصحيح لثقافة التقية. ومن هنا يفهم قوله تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}[٣]، إذ تتحدث الآية عن الإعداد الذي يسبق القتال أولاً وبالذات، لأنه مقدمة القتال فإن بطلت المقدمة بطلت النتيجة، كما تؤكد على أن إعداد القوة للعدو الظاهر تضمن أيضاً الإعداد للعدو الخفي غير المعلوم، يدلك عليه قوله: {وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ}.

---

[٢] بحار الأنوار للمجلسي: ج٥٢ ص١٣٨، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

[٣] الأنفال: (٦٠).

حين نتتبع تاريخ الأنبياء والرسالات نجد أن التقية كانت العصب في حفظ الدين من باب التخطيط ورسم الاستراتيجيات للمحافظة على الدين، فأول من جاءه الأمر بالتزام التقية هو النبي هبة الله شيث بن آدم عليهم السلام الذي أمره والده بها حينما يتولى الأمر من بعده تقية من أخيه قابيل المطرود الذي سيعود، وبالفعل عاد قابيل بمجرد سماع خبر موت والده آدم عليه السلام مهدداً أخاه شيث بأنه سيقتله كما قتل هابيل لو أظهر شيئاً من دينه أو نبوته أو دعوته، فكان قوام الدين وحفظ الدعوة إلى الله بالتزام التقية وذلك بالعمل السري الممنهج قبال العمل العلني الممنهج لقابيل بمعية إبليس الرجيم لعنهما الله.

ولننتقل هنا إلى مصطلح قرآني ومعصومي مهم في ذات السياق هو (المكر الإلهي) المتجلي في قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[٤]، إذ تعرضت الآية لنوعين من المكر أولهما المكر الإنساني (يمكر بك/ويمكرون) والآخر مكر الله (ويمكر الله)، ثم أفصحت عن البون الشاسع بينهما (والله خير الماكرين). والمركر الإلهي هو ذلك التدبير الخفي السري المنظم المتقن لإفساد مكر الشيطان، وعليه فإن التقية هي مكر الله في أرضه لا بالخنوع والركون والسكون بل بالتدبير والتخطيط للمستقبل.

حينما نراجع الروايات الشريفة نجدها مليئة بالتأكيد على ضرورة التدبير والتخطيط والتقية والمكر، وذلك منذ بدء الخليقة من أيام النبي آدم (ع) ووصيه شيث (ع)، فتذكر أن النبي آدم عليه السلام قد أوصى ابنه النبي شيث (ع) بأن يجعل من التقية جسراً لإيصال الأمر إلى النبي نوح

---

[٤] الأنفال: (٣٠).

(ع)، الذي ستكون وظيفته نهاية المطاف الجهر عبر قضية السفينة والطوفان حيث القوة والمنعة، فيقضي الطوفان على نسل قابيل نهائياً، علماً بأن بين شيث ونوح عليهما السلام عشرة آباء كما سيأتي. وفي ذلك روي عن الإمام الباقر (ع) قوله: (.... فلما انقضت نبوة آدم عليه السلام واستكمل أيامه أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا آدم إنه قد انقضت نبوتك، واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة في العقب من ذريتك عند ابنك هبة الله، فإني لن أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة من العقب من ذريتك إلى يوم القيامة، ولن أدع الأرض إلا وفيها عالم يعرف به ديني وتعرف به طاعتي، فيكون نجاة لمن يولد فيما بينك وبين نوح، وذكر آدم نوحاً وقال: إن الله تبارك وتعالى باعث نبياً اسمه نوح وإنه يدعو إلى الله فيكذبونه فيقتلهم الله بالطوفان، وكان بين آدم ونوح عشرة آباء كلهم أنبياء الله، وأوصى آدم إلى هبة الله: أن من أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه وليصدق به فإنه ينجو من الغرق)[٥]. وفي قوله (لن أقطع) وقوله (لن أدع) دلالة جلية على استناد آدم عليه السلام على التقية والتدبير الخفي والمكر الإلهي مما سيبعث على بقاء النبوة والعلم والإيمان وعدم إفساح المجال للشيطان ليجعل الأرض خالية من حجة لله في أرضه، وستتكفل التقية بحفظ الدين والدعوة لله تعالى إلى عشرة آباء أنبياء حتى يأتي عهد نوح عليه السلام فيكون الإنتصار الإلهي الأكبر بالطوفان.

[٥] بحار الأنوار للمجلسي: ج٢٣ ص٦٤،

وفي أمر خوف شيث من بطش هابيل ما روي عن الإمام الباقر (ع) في ذات الرواية السالفة: (.... ثم إن هبة الله لما دفن آدم أتاه قابيل فقال له: يا هبة الله قد رأيت آدم أبي قد خصك من العلم بما لم أخص به، وهو العلم الذي دعا به أخوك هابيل فتقبل قربانه وإنما قتلته لكيلا يكون له عقب فيفتخرون على عقبي فيقولون: نحن أبناء الذي تقبل قربانه، وأنتم أبناء الذي لم يتقبل قربانه، وإنك إن أظهرت من العلم الذي اختصك به أبوك شيئاً قتلتك كما قتلت أخاك هابيل، فلبث هبة الله والعقب منه مستخفين بما عندهم من العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة حتى بعث نوح عليه السلام وظهرت وصية هبة الله حين نظروا في وصية آدم فوجدوا نوحاً قد بشر به أبوهم آدم عليه السلام فآمنوا به واتبعوه وصدقوه، وقد كان آدم أوصى هبة الله أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة فيكون يوم عيد لهم ، فيتعاهدون بعث نوح في زمانه الذي بعث فيه، وكذلك جرى في وصية كل نبي حتى بعث الله تبارك وتعالى محمداً)[٦]. قوله: (مستخفين بما عندهم من العلم...) دلالة على التقية بالمكر والتدبير الخفي المتقن، وقوله: (فآمنوا به واتبعوه وصدقوه) دلالة على نجاح التدبير، وقوله: (يتعاهد هذه الوصية....) دلالة على استمرار الحركة والتخطيط، وقوله: (فيكون عيد لهم) دلالة على الابتكار في التخطيط، وقوله: (وكذلك جرى في وصية كل نبي...) دلالة على استمرار التدبير وأنه سنة في كل عصور الأنبياء عليهم السلام.

[٦] المصدر السابق: ص٦٥.

وفي رواية أخرى قوله (ع): (... وأمر آدم عليه السلام بتابوت ثم جعل فيه علمه والأسماء والوصية ثم دفعه إلى هبة الله فقال له: انظر إذا أنا مت يا هبة الله فاغسلني وكفني وصل علي وأدخلني حفرتي، وإذا حضرت وفاتك وأحسست بذلك من نفسك فالتمس خير ولدك وأكثرهم لك صحبة وأفضلهم فأوص إليه بما أوصيت به إليك، ولا تدع الأرض بغير عالم منا أهل البيت يا بني إن الله تعالى أهبطني إلى الأرض وجعلني خليفة فيها وحجة له على خلقه، وجعلتك حجة الله في أرضه من بعدي، فلا تخرجن من الدنيا حتى تجعل لله حجة على خلقه ووصياً من بعدك، وسلم إليه التابوت وما فيه كما سلمت إليك، وأعلمه أنه سيكون من ذريتي رجل نبي اسمه نوح يكون في نبوته الطوفان والغرق فأوص وصيك أن يحتفظ بالتابوت وبما فيه فإذا حضرته وفاته فمره أن يوصي إلى خير ولده وليضع كل وصي وصيته في التابوت وليوص بذلك بعضهم إلى بعض، فمن أدرك منهم نبوة نوح فليركب معه وليحمل التابوت وما فيه إلى فلكه ولا يتخلف عنه واحد، واحذر يا هبة الله وأنتم يا ولدي الملعون قابيل...)[٧]. وهنا تأتي تفاصيل التدبير الخفي والمكر الإلهي بتوضيح التوقيت المناسب وذلك في قوله: (وإذا حضرت وفاتك وأحسست بذلك من نفسك)، ثم تحديد مقومات القائد الوصي الذي سيخلف السابق له وهو قوله: (فالتمس خير ولدك وأكثرهم لك صحبة وأفضلهم)، ثم التأكيد على الاستمرار والحركة بقوله: (ولا تدع الأرض بغير عالم)، ثم التشديد على تسليم المواريث بقوله: (وسلم إليه التابوت وما فيه)، ثم التخطيط بعيد المدى بقوله: (وأعلمه أنه سيكون من ذريتي رجل نبي اسمه نوح...)، ثم الإخبار بالإنتصار

---

[٧] بحار الأنوار: ج١١ ص٢٦٥، مصدر سابق.

بقوله: (يكون في نبوته الطوفان والغرق)، ثم بيان شروط النجاة والإنتصار في قوله: (فمن أدرك منهم نبوة نوح فليركب معه وليحمل التابوت وما فيه إلى فلكه ولا يتخلف عنه واحد)، ثم الدعوة للزوم الحيطة والحذر بالرغم من الحركة والتدبير حيث قال: (واحذر يا هبة الله وأنتم يا ولدي الملعون قابيل...).

وفي رواية صريحة عن الإمام الصادق (ع) يؤكد أن سنّة الأنبياء جرت بالكتمان مصرحاً بمفردة التقية وهو قوله: (لما أوصى آدم عليه السلام إلى هابيل حسده قابيل فقتله، فوهب الله تعالى لآدم هبة الله، وأمره أن يوصي إليه، وأمره أن يكتم ذلك، قال: فجرت السنة بالكتمان في الوصية، فقال قابيل لهبة الله: قد علمت أن أباك قد أوصى إليك فإن أظهرت ذلك أو نطقت بشئ منه لأقتلنك كما قتلت أخاك، واستخفى هبة الله بما عنده من العلم لينقضي دولة قابيل، ولذلك يسعنا في قومنا التقية، لأن لنا في ابن آدم أسوة، قال: فحدث هبة الله ولده بالميثاق سراً فجرت والله السنة بالوصية من هبة الله في ولده يتوارثونها عالم بعد عالم، فكانوا يفتحون الوصية كل سنة يوماً فيحدثون أن أباهم قد بشرهم بنوح عليه السلام)[٨]. وفي هذه الرواية وسابقتها وغيرهما أن قابيل كان يهدد شيث (ع) بالقتل إنْ هو أظهر أمره وعمل بالوصية علناً، فكان المكر الإلهي منصباً في التدبير الخفي (التقية) ليحسب قابيل لعنه الله أنه قد نجح في مسعاه لما يرى من ظاهر حال شيث عليه السلام، في حين أن التدبير الخفي بدأ ينخر في قابيل ومسلكه على المدى البعيد، إلى أن يجتث من جذوره بالضربة القاضية في طوفان نوح سلام الله عليه.

---

[٨] بحار الأنوار: ج١١ ص٢٤٠، مصدر سابق.

والأعمق من ذلك أننا لما ننظر في سيرة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام نجد أن بعضهم كانوا مأمورين بالتدبير الخفي وهم في أوج قوتتهم وسطوتهم وسلطانهم كما جرى لوصي النبي سليمان عليه السلام وهو سيدنا آصف بن برخيا (ع) الذي أرعب المردة والشياطين واستطاع اقتلاع عرش بلقيس قبل ارتداد طرف سليمان متحدياً القوة الهائلة التي يتبجح بها أعداء الدين ويراهنون عليها، فمع ما لآصف عليه السلام من القوة والقدرة والسطوة إلا أنه أمر بالتقية وهنا لا بالمعنى السطحي أي السكوت والسكون في حال الخوف، وإنما بمعناها العميق المتأصل وفلسفتها المتعالية أي التدبير الخفي، وهو دلالة ساطعة على أن التدبير الخفي والمكر مطلوبان أساسيان حتى في مواقف وعصور القوة والهيمنة، لأن القوة لن تأتي بثمار التقية والدليل أنه بمجرد اختفاء وغياب آصف بن برخيا بعد وفاة سليمان عليه السلام عادت سطوت الشياطين والسحرة والمردة والعفاريت أكثر من السابق بكثير، فكان التدبير الخفي هو الحل الجذري لهؤلاء الأعداء، فاختفى آصف عليه السلام ثم عاد ثم رفع إلى السماء كما في روايات المعصومين عليهم السلام. ففي حديث طويل عن رسول الله (ص): (... لمّا حضرته الوفاة –النبي سليمان- أوصى إلى آصف بن برخيا بأمر الله تعالى ذكره، فلم يزل بينهم تختلف إليه الشيعة ويأخذون عنه معالم دينهم، ثمَّ غيّب الله تبارك وتعالى آصف غيبة طال أمدها، ثمَّ ظهر لهم فبقي بين قومه ما شاء الله، ثمَّ إنّه ودَّعهم فقالوا له: أين الملتقى؟ قال: على الصراط؟ وغاب عنهم ما شاء الله فاشتدَّت البلوى على

بني إسرائيل بغيبته، وتسلّط عليهم بختنصّر فجعل يقتل من يظفر به منهم، ويطلب من يهرب ويسبي ذراريهم...)[٩].

النموذج المشابه الآخر هو ما جرى على أمير المؤمنين وسيد الوصيين أسد الله الغالب وقاتل العمرين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث أمر بإغماد سيفه الذي يخشاه الجميع بل والإيعاز للأعداء بأن علياً لن يرفع سيفه أبداً وهو ما جرّأ تلك الطغمة على الأمير(ع) ليقينهم أنه لن يخالف الوصية بالتقية، ظناً منهم انتهاز فرصة سكوت وسكون وجمود علي عليه السلام، في حين أن ذلك كان مدعاة لمعرفة الحق فيه والدفع بالعودة له على المدى البعيد الذي كلفه حوالي ثلاثين عاماً من التخطيط والتدبير الخفي، وكانت النتيجة أن انثال الناس عليه ليجبروه على قبول البيعة بالخلافة حتى شق عطفاه ووطيء الحسنان عليهما السلام وهو قول أمير الفصاحة في نهج البلاغة: (فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلي، ينثالون عليّ من كل جانب، حتى لقد وطيء الحسنان، وشق عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم)[١٠].

إذا فهمنا فلسفة التقية والتدبير الخفي والمكر الإلهي اختصرنا الطريق لفهم الكثير من القضايا العالقة في السيرة والعقائد والتاريخ بل وحتى الفقه، وفككنا حيرة العديد من الأسئلة التي لم ينظر في جوابها لمفهوم التقية العميق، ومنها كيف تجرأ القوم على الأمير؟ كيف رضي الأمير بالسكوت والجمود عند الهجوم؟ لماذا لم يطالب الأمير بالخلافة؟ لماذا يصرح الأمير بأن يكون وزيراً لهم

---

[٩] كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ج١ ص١٨٥، مؤسسة النشر الإسلامي-قم المقدسة، ١٤٠٥هـ.

[١٠] نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج١ ص٣٦، دار المعرفة للطباعة والنشر-بيروت.

خيرٌ لديه من أن يكون أميراً؟ لماذا قدم الأمير المشورة لمغتصبي الخلافة في المآزق التي لولاه لهلكو وذلك بإقرارهم؟

إنها التقية... إنه التدبير الخفي... إنه مكر الله... التخطيط بعيد المدى... إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ويشف صدور المؤمنين بظهور الحجة عجل الله تعالى فرجه، فننعم بالدولة الكريمة التي يعز بها الإسلام وأهله ويذل بها النفاق وأهله، فيحل الإنتصار الإلهي العالمي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً....

كتبه: د. الشيخ جمال آل خرفوش

الجمعة ٢٠٢٠/٧/١٠م

الموافق ١٨ ذوالقعدة (١٤٤١هـ).